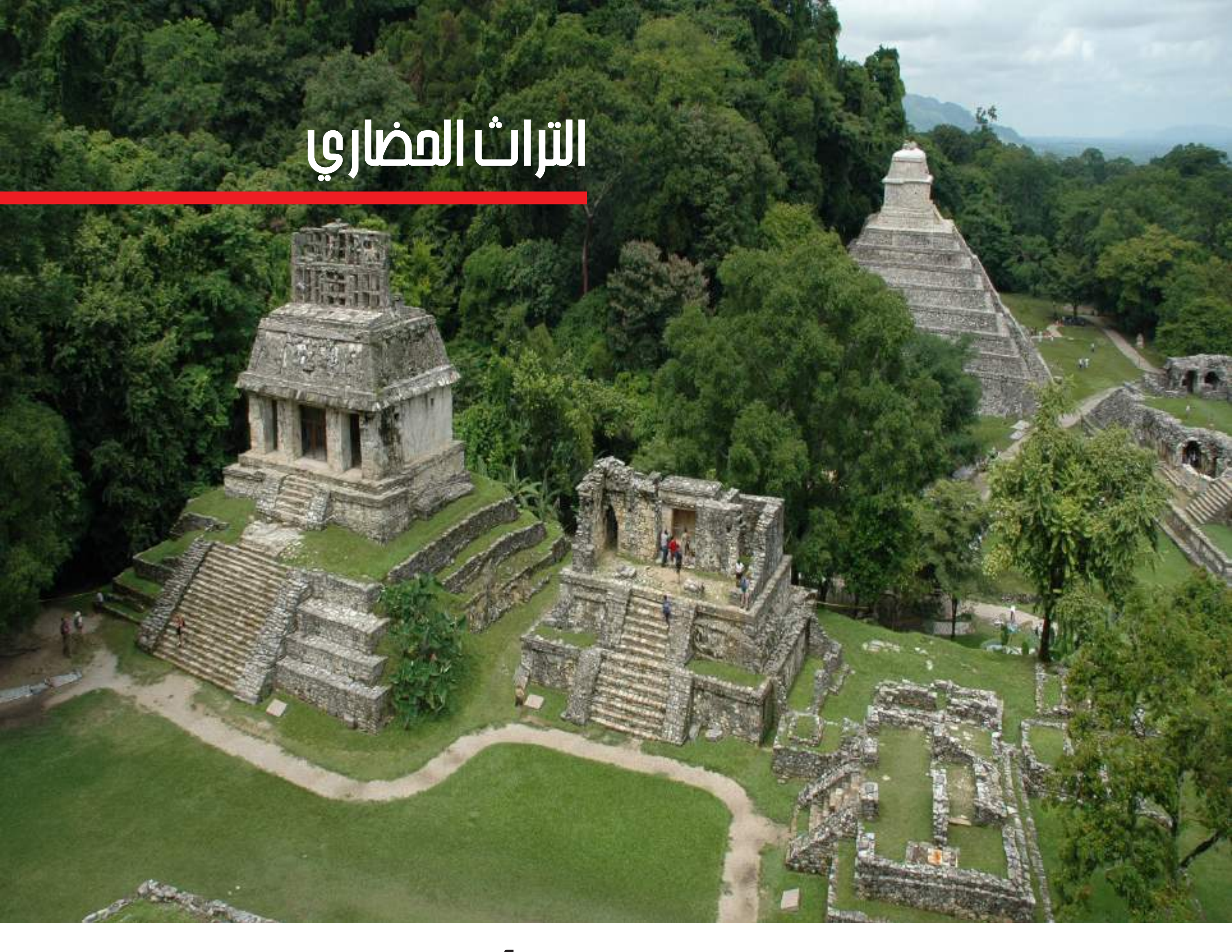


الحضارات القديمة في أمريكا اللاتينيّة

الأزتيك والمايا

أ . د . عمار محمد النهار

الأدب العلمي SCIENTIFIC LITERATURE

كان الهنود الحمر هم أول السكان الأصليين لأمريكا اللاتينية، ويرى العلماء أن أسلاف هؤلاء الهنود قدموا إلى أمريكا الشمالية من آسيا منذ ما يزيد على ٢٠,٠٠٠ سنة حيث كان هناك برزخ يصل بين آسيا وأمريكا الشمالية عبر ما يعرف الآن باسم مضيق بيرنج وهذا المضيق يفصل الآن بين آسيا وألاسكا .

ومن المحتمل أن يكون بعض الناس من آسيا قد عبروا هذا البرزخ وهم يتابعون بعض حيوانات الصيد. وقد أصبحت سلالة هؤلاء يعرفون باسم الهنود الحمر، وفي حوالي عام ٦٠٠٠ قبل الميلاد انتشر هؤلاء الهنود في معظم أرجاء الأمريكتين حتى الطرف الجنوبي لأمريكا الجنوبية.

ظل الهنود الحمر لآلاف السنين يعيشون في مجموعات صغيرة، كانوا يتحركون باستمرار بحثاً عن حيوانات الصيد والنباتات البرية كطعام لهم (١).

ثم قامت في أمريكا الوسطى والجنوب حضارات أهمها:

أولاً - الأزتك:

قامت هذه الحضارة في القرن السادس عشر الميلادي في شمال غربي المكسيك، كان حكمها ملكياً، وتركزت عقيدتها الدينية حول عبادة إله يرمز إلى الشمس.

١- الحياة الاجتماعية والاقتصادية:

تألف مجتمع الأزتك من أربع طبقات رئيسية هي:

أ - طبقة النبلاء.

ب - طبقة العامة.

ج - طبقة الأتباع.

د- طبقة العبيد.

وعلى الرغم من هذا التقسيم الطبقي فقد ارتبطت عائلات من طبقة النبلاء بعائلات من طبقة العامة بصلات قربى وثيقة، وانتمت هذه العائلات كلها إلى مجموعات الكالبولي، وامتلك أفراد المجموعة مساحة من الأرض ملكاً مشتركاً، وكان يُسمح لكل عائلة أن تزرع قطعة كبيرة من الأرض تكفي لسد حاجاتها، وبالإضافة إلى أرض الكالبولي كان معظم النبلاء يمتلكون أراضي خاصة بهم أو أراضي كانوا قد حصلوا عليها من الحكومة لاستخدامها خلال شَغْلِهم لمناصبهم الحكومية. وشَكَّلَ العامة غالبية السكان، وعاش عددٌ كبيرٌ منهم على زراعة أراضي الكالبولي. وعمل الأتباع في الأراضي التي يملكها النبلاء، وكانوا يستمرون فيها وإن انتقلت ملكيتها إلى نبيل جديد. وكان العبيد يُعدّون ملكية خاصة، لكن أولادهم كانوا يولدون أحراراً، وكان عدد كبير من العبيد أسرى حرب وعدد آخر اشتراه الأزتك من جماعات أخرى، وهناك عبيد استُرقُوا؛ لأنهم كانوا مجرمين أو أناساً عجزوا عن دفع ديونهم (٢).

وكان يعيش في مدينة تينوختيتلان نحو مليون إنسان في بيوت حجرية مؤلفة من طابق واحد وذات سطوح مستوية، وتركزت المدينة حول معبدين هرميين كانا يرتفعان فوق ٣٠م، هناك كان الكهنة يقدمون الأسرى للآلهة كقرابين في حفلات طقسية.

تكلم الأزتك لغة تُسمى ناهواتل، تنتمي إلى مجموعة كبرى من اللغات الهندية تعرف بعائلة أزتك - تانوان أو يوتو أزتكان اللغوية - كما تضم هذه العائلة اللغات التي تتحدث بها قبائل كامنشي وبيما وشوشوني، وقبائل أخرى في أمريكا الشمالية الغربية.

واستخدم الأزتك شكلاً من الكتابة يوصف بالكتابة التصويرية، وتتألف من

صور صغيرة، ومنها ما يرمز إلى معاني الأشياء المصورة ومنها ما يعطي أصواتاً لمقاطع لفظية.

ولم يكن تطور نظام الكتابة التصويرية كافياً ليقدم تعبيراً كاملاً عن الأفكار، وقد استخدم الأزتك هذا النظام، بصورة رئيسية، من أجل السجلات التجارية والإحصائيات والكتابات التاريخية والدينية وقوائم الضرائب (٣).

أما بالنسبة لنشاطات الأزتك فلم تكن الثيران والخيول والدولاب معروفة في مملكة الأزتيك كما في كل أمريكا قبل اكتشافها، وكان التجار ينتقلون من مدينة إلى أخرى بموكب طويل من الحمالين الذين يحمل كل منهم حملا من نحو ٣٠ كغ على ظهره، وكان يقام في كل مدينة سوق كل عشرين يوماً حيث تجري مقايضة البضائع بعضها ببعض.

ازدهر في مملكة الأزتيك الحفر على الخشب وتصنيع الأحجار الكريمة والنسيج، وكتب الكهان كتباً جلدية كانت تطوى على شكل الأكورديون، ويوجد في بعض هذه الكتب التي كتبت بإشارات صورية مختصر لتاريخ القبيلة البالغ ألف سنة. وعرف الأزتيكيون الخرائط أيضاً ووضعوا نماذج جيدة منها استخدم إحداها أحد القادة الأسبان عند عبوره شبه جزيرة يوكاتان (٤).

كانت الزراعة أساس الاقتصاد عند الأزتك، وأكثر المحاصيل أهمية الذرة الشامية. وكانوا يزرعون أيضاً الأفوكادو والفاصوليا والدباء والبطاطا الحلوة والطماطم وعدداً كبيراً من المحاصيل الأخرى. وقد وفرت الأراضي المنخفضة المنتجات الاستوائية مثل: القطن والباباي والمطاط وحبوب الكاكاو التي تصنع منها الشوكولاته.

كانت الآلة الزراعية الأساسية هي عصا مدببة تستعمل للحفر، ولجأ المزارعون في الأراضي المنخفضة، المغطاة بغابة كثيفة، إلى عمليتي القطع والحرق، حيث كانوا يقطعون جزءاً من الغابة ويحرقونه، ثم يزرعون المحاصيل في الأراضي التي تم تنظيفها، كان الرماد يزيد من خصوبة التربة. وشق الأزتك في الأراضي المرتفعة المصاطب في جوانب التلال كي يزيدوا من مساحة الأرض الزراعية. كما أنهم حفروا شبكات الري لسقي محاصيلهم، وبالإضافة إلى ذلك حوَّل المزارعون بقعاً من البحيرات الضحلة إلى أراضٍ زراعية بجرف الطين من قاع هذه البحيرات وتشكيله على هيئة جُزر، كانت تعرف باسم تشينامباس، وكان المزارعون يضيفون، بصورة منتظمة، طيناً جديداً في غاية الخصوبة، وأدى ذلك إلى الإنتاج الوفير



من المحاصيل الزراعية لجزر التشينامباس، ولايزال في بحيرة زوخيملكو في مدينة مكسيكو سيتي، عددٌ كبيرٌ من التشينامباس، وعلى الرغم من أن هذه الجزر غير عائمة، أي غير محاطة بالمياه، إلا أنهم غالباً ما كانوا يطلقون عليها اسم الحدائق العائمة.

وعرف الأزتك التجارة والنقل، فكانت ساحة السوق مركزاً رئيسياً في حياة الأزتك، فكان سوق تلاتيلولكو أكبر سوق في الأمريكتين، وقد عُرضت في هذا السوق كل أنواع السلع المتوافرة في عالم الأزتك، وكتب المكتشف الأسباني هرناندو كورتيز بأن أكثر من٦٠ ألف نسمة يزورون هذا السوق يومياً، وكان هناك عددٌ كبيرٌ من الأسواق الصغيرة في أرجاء الإمبراطورية، وكان موظفو الحكومة يشرفون على التجارة.

وكان التجار يعرفون باسم بوشتيكا، ويجوبون كل أرجاء الإمبراطورية في حملات تجارية، استخدم التجار عدداً كبيراً من الحمالين يسيرون في قوافل طويلة وهم يحملون على ظهورهم حمولات ثقيلة. وتَاجَرَ سكان الأراضي المنخفضة بمنتجاتهم من الكاكاو والقطن والمطاط وجلود نمور اليغور وريش الطيور المدارية. وتسلموا مقابلها سلعاً من الأراضي المرتفعة، منها السبج (الزجاج البركاني) الذي كان يستخدم في صناعة السكاكين، ومجموعة منوعة من المنتجات المصنعة (٥).

وكان للدين أهمية فائقة في حياة الأزتك، وكرَّس الناس معظم أوقاتهم للعبادة، حتى أنهم كانوا يشنون الحروب، بصورة رئيسية بغية الحصول على أسرى يقدمونهم قرابين لآلهتهم.

عبد الأزتك مئات من الآلهة، وكانوا يزعمون بأن لكل واحد منها سيطرة على حركة أو أكثر من الحركات البشرية، أو على مظهر أو أكثر من مظاهر الطبيعة. ولما كان اقتصاد الأزتك يعتمد على الزراعة كان لشعبهم عدد كبير من الآلهة الزراعية، منها سنتيوتل للذُرة، تلانوك للمطر والخصب، زايب توتك للربيع وإحياء الأرض.

كان للأزتك كثير من الطقوس الدينية، ويُقام أكثرها أهمية أيام الزراعة والحصاد، ومناسبات أخرى خلال السنة الزراعية. وكان العديد من هذه الطقوس الدينية تهدف إلى ضمان محاصيل وفيرة حسبما كانوا يعتقدونه من عطف آلهتهم.

أَدّت القرابين البشرية دوراً أساسياً في معظم الطقوس الدينية، وكان الكهنة يشقون صدر الضحية الحية وينتزعون منها القلب، إذ كانوا يعتقدون أن آلهتهم تحتاج إلى قلوب ودماء بشرية كي تبقى قوية. وكان المتعبدون يأكلون، أحياناً، أجزاء من جسد الضحية، وربما كانوا يعتقدون أيضاً أن قوة الشخص الميت وشجاعته تنتقل إلى كل من يأكل لحمه، وكان معظم الضحايا من أسرى الحروب أو العبيد، ولكن الأزتك كانوا يضحون بأولادهم لإلههم تيالوك.

كان التقويم الديني عند الأزتك يتألف من ٢٦٠ يوماً، وقد استخدم الكهنة التقويم لتحديد أيام السعد للقيام ببعض الأعمال، مثل بذر المحاصيل وبناء البيوت والخروج إلى الحرب، كما كان لهم تقويم شمسي يتألف من ٣٦٥ يوماً، وكان التقويم الأخير يتألف

من ١٨ شهراً، وكل شهر يتألف من ٢٠ يوماً، علاوة على خمسة أيام إضافية.

كان الأزتك يقيمون احتفالاً كبيراً كل ٥٢ سنة، يُدعى ربط السنوات أو مهرجان النار الجديدة، وقبل بداية الاحتفال يطفيء الناس مواقد نيرانهم، ليشعل الكهنة ناراً جديدة فوق صدر أحد القرابين عند فجر دورة الـ ٥٢ سنة الجديدة. وكان الناس يقومون بوخز أنفسهم ليضيفوا دماءهم إلى القربان، ومن ثم يشعلون من هذه النار الجديدة، نيران مواقدهم ثانية، ثم يحتفلون (٦).

٢- حضارة الأزتيك:

أخذت قبيلة هندية صغيرة فقيرة عام ١١٦٨ حضارة التولتيك وأسست مملكة شملت مع مرور الزمن نحو خمسة ملايين إنسان، وكان هؤلاء الأزتيك أو «الناس المنظمين في صفوف».

هاجر الأزتيكيون بعد انهيار مملكة التولتيك نحو الجنوب، وتروي الأسطورة أنهم عاشوا قبل أن يطوروا حضارتهم على جزيرة في أحد البحار، وهناك ظهر لهم إلههم Huitzilopochtli الذي أمرهم بالبحث عن الإشارة الخاصة به وقال لهم أنهم عندما يجدونها سيصبحون شعباً كبيراً، فتنقل الأزتيكيون من مكان إلى مكان وبقوا في كل مكان بضع سنوات فقط كانوا يزرعون خلالها الذرة، وحوّلهم أحد الملوك مرة إلى عبيد لكنهم هربوا إلى جزيرة مستنقعية في بحر المكسيك، وهناك رأى قادتهم الأربعة، الذين كانوا يشكلون مجلساً للشيوخ، صخرة عليها نبات صبار يقف فوقه نسر يمسك أفعى بمخالبه، وكانت هذه إشارة الإله المنشودة، إذ بنى الأزتيكيون في المكان مدينة تينوختيتلان Tenochtitlan (صخرة الصبار) (حالياً مكسيكو سيتي وهي الآن عاصمة جمهورية المكسيك).

سيطر الأزتيكيون حتى عام ١٥٠٢ تقريباً على كل الجزء الجنوبي الخصب من المكسيك. وفي عام ١٥١٩ احتل الإسبان المكسيك، وبعد سنة مات الحاكم الأزتيكي في الأسر الإسباني وتسلم خليفته من بعده قيادة شعبه (٧).

كان للأزتك إحدى أشهر الحضارات المتقدمة في الأمريكتين، وبنوا مدناً كبيرة تعدل أية مدينة في أوروبا وقتذاك، واعتنقوا ديانة وثنية تركت أثرها في كل جوانب حياتهم. وبنى الأزتك معابد ضخمة لعبادة آلهتهم، كما أنهم عملوا منحوتات كبيرة، والتزموا بطقوس تميزت بتقديم القرابين البشرية. ودمر الإسبان إمبراطورية الأزتك عندما غزوها سنة ١٥٢١م. لكن أثّر الأزتك في الثقافة المكسيكية ترك بصمات دائمة وثابتة.

يُستخدم اسم الأزتك أحياناً للإشارة إلى الشعب الذي أسس مدينة تينوختيتلان في أواسط القرن الرابع عشر الميلادي، وكانت هذه المدينة تقوم في موقع مدينة مكسيكو سيتي الحالية. وكان سكانها يسمون أنفسهم بأسماء مختلفة منها: كولهوا - مكسيكا ، مكسيكا وتينوخكا .

وفي القرن الخامس عشر الميلادي أخضعت مدينةُ تينوختيتلان وحلفاؤها عدداً كبيراً من التجمعات البشرية الأخرى في وسط المكسيك وجنوبيها، مُشكِّلة بذلك إمبراطورية الأزتك، التي أصبحت تينوختيتلان عاصمتها .

واستُخدم اسم الأزتك أيضاً للدلالة على هذه التجمعات الكبرى من الهنود الذين شكلوا هذه الإمبراطورية (٨).

وبذلك اشتملت إمبراطورية الأزتك على عدد كبير من المدن والحواضر، وبخاصة تلك الواقعة في وادي المكسيك، وكانت أكبر مدينة في هذه الإمبراطورية العاصمة تينوختيتلان، التي تقوم على جزيرة في بحيرة تكسكوكو، وتربطها بالقارة قنوات وجسور تمر عبر المدينة، وامتدت تينوختيتلان على رقعة مساحتها نحو ١٥كم^2. وفوق إحدى الجزر الواقعة إلى الشمال من مدينة تينوختيتلان انتصبت مدينة تلاتيلولكو التي كانت توأماً لها. وكلتا المدينتين تقعان داخل حدود مدينة مكسيكو سيتي الآن، وقد كانت مدينة مكسيكو سيتي تغطي معظم بحيرة تكسكوكو التي جَفَّتْ خلال القرن السابع عشر. وفي سنة ١٤٧٣م أخضع سكان تينوختيتلان مدينة تلاتيلولكو ووحدوا المدينتين. وعندما وصل الإسبان في القرن السادس عشر، لم يكن في إسبانيا مدينة يبلغ عدد سكانها عدد سكان مدينة تينوختيتلان الذي ربما بلغ أكثر من مائة ألف نسمة.

كان لإمبراطور الأزتك لقب هو هيوي تلاتوني (المتحدث الكبير)، وكان يقوم باختياره من بين أفراد الأسرة المالكة، مجلس مؤلف من نبلاء ذوي مقامات رفيعة، كان الإمبراطور يتمتع بسلطة كبيرة، ولكن كان عليه أن يستشير مجلس النبلاء قبل أن يتخذ القرارات المهمة. وكانت تتمركز، في المواقع الرئيسية في أرجاء الإمبراطورية المختلفة وحدات عسكرية للمحافظة على الأمن، ويقود معظم هذه الوحدات أحد كبار النبلاء، الذي يضطلع، في الوقت نفسه، بدور حاكم الإقليم، ويدير شؤون الإمبراطورية جهاز مُحكَم من الدوائر الحكومية. وكان عدد كبير من المراكز العليا وراثياً، لكن خدمة الإمبراطورية كانت السبيل الرئيسي للحصول على منصب عال (٩).

٣- النشاط الفكري:

كانت المنحوتات الأزتكية، التي كانت تزين المعابد والمباني الأخرى، من أكثر المنحوتات إتقاناً في الأمريكيتين، وأشهر أثر أزتكي منحوت، لايزال موجوداً حتى الآن هو حجر التقويم الدائري الضخم الذي يمثل مفهوم الكون عندهم، وقطر هذا الحجر نحو ٥,٣م، وفي وسطه وجه توناتيوه - إله الشمس عندهم - وهناك نقوش أخرى على الحجر، تمثل أيام الشهر عند الأزتك، ورموز دينية متعلقة بعبادة إله الشمس عندهم. ويعتقد عددٌ كبيرٌ من الأثريين أن كهنة الأزتك كانوا يضعون قلوب القرابين البشرية على

هذا الحجر. وأنتج الأزتك أشكالاً متعددة من الأدب المروي، يشمل الشعر وروايات متوارثة من تاريخهم، وكان للموسيقا دور رئيسي في طقوسهم الدينية، والآلات الموسيقية الرئيسية عندهم هي الطبل والمزمار والخشخاشة.

واستخدم حرفيو الأزتك الريش لصناعة العباءات الجميلة وأغطية الرأس وثياب أخرى، كما عرفوا حرفاً مهمة أخرى اشتملت على صناعة المعادن والخزف والحياكة والنقش على الخشب (١٠).

وتعيش حالياً في الولايات المتحدة الأمريكية، أعداد كبيرة من ذوي الأصول الأزتكية، وبخاصة في ولايتي كاليفورنيا وتكساس، وقد طوَّر هؤلاء الأمريكيون المكسيكيون، في أواسط القرن العشرين، اتجاهاً ثقافياً جديداً للاعتزاز بأسلافهم الأزتك أطلقوا عليه اسم تراث الأزتك (١١) .

ولاتزال قلة قليلة من بقايا العمارة الأزتكية باقية حتى الآن، فقد عدّ الإسبان أن واجبهم كنصارى أن يمحوا كل ما في المعابد والآثار الأخرى، من الأشياء المتعلقة بديانة الأزتك، فدمروا مدينة تينوختيتلان وبنوا على أنقاضها مدينة مكسيكوسيتي، لكن الآثاريين كشفوا خلال عمليات التنقيب عن موقع المعبد الكبير في مدينة مكسيكوسيتي، وكشفوا جوانب البناء الأربعة، واكتشفوا حوالي ستة آلاف قطعة، تشمل مجوهرات وخزفاً وتماثيل ونقوشاً جدارية وبقايا قرابين حيوانية وبشرية، ورمم الأثريون بعض المباني الأزتكية الأخرى، منها معابد في كل من تينايوكا وتيبوزتان، الواقعتين قرب مدينة مكسيكوسيتي. وبالإضافة إلى ذلك يضم المتحف الوطني للآثار في مدينة مكسيكوسيتي مجموعة كبيرة من الأعمال الفنية الأزتكية.

والآلاف من السكان في المكسيك لهم أسلاف من الأزتك، كما أن عدداً كبيراً منهم يتكلمون صورة حديثة من لغة ناوات، هذا فضلاً عن أن عدداً كبيراً من أسماء الأماكن المكسيكية، بما في ذلك أكابولكو ومكسيكوسيتي نفسها قد جاءت من لغة ناهواتيل، وكذلك، كان حال الكلمات الإنكليزية مثل الأفوكادو والشوكولاتة والطماطم، واستخدم رسامون مكسيكيون، أمثال جوز أورازكو ودييجو ريفيرا ودافيد سيكوروز، موضوعات أزتكية في رسوماتهم. هذا فضلاً عن أطعمة من أصل أزتكي، مثل الفلفل والشوكولاتة والتاكو، قد أصبحت مألوفة في عدد كبير من البلاد.

ثانياً- المايا:

قامت حضارتهم في أمريكا الوسطى التي تأسست سنة ٣٠٠م واندثرت بسبب الكوارث الطبيعية سنة ٩٠٠م، ثم عادت إلى الظهور في القرن العاشر الميلادي، وبقيت مجهولة حتى اكتشفت مصادفة سنة ١٨٤٠م. امتازت بوجود كتابة تصويرية، مع ازدهار الفلك والعمارة وأكثروا من الأهرامات.

١- لمحة عامة:

ترجع أصول شعب المايا إلى الهنود الحمر الأمريكيين الذين أسهموا في بناء حضارة في أمريكا الوسطى. ووصلت حضارة المايا أقصى مراحل تطورها الكبرى في منتصف القرن

الثالث الميلادي واستمرت في الازدهار لأكثر من ستة قرون (١٢).

ففي المراحل المبكرة شكلت مقاطعة إلبتين، في جواتيمالا الحالية، قلب حضارة المايا، ومن الجائز أن المزارعين الأوائل استقروا في هذه المنطقة منذ ٢٥٠٠ق. م، بحثاً عن الأراضي الزراعية، وسكن هؤلاء الناس في قرى صغيرة وجمعوا الغذاء من الغابة المجاورة بالإضافة إلى زراعة المحاصيل.

وبحلول القرن التاسع قبل الميلاد كانت الأراضي المنخفضة للمايا مأهولة بالسكان برمتها. وآنذاك، كانت مجموعة من الهنود الحمر المسماة أولميك تعيش في منطقة توجد غربي المايا، وربما كان الأولميك من أمريكا الوسطى، هم الذين اخترعوا الأرقام والكتابة، وكان لهم كذلك فن متطور حسب نموذج الحضارة عندهم، وأثرت حضارة الأولميك في تشييد الأهرامات ونحت تماثيل حجرية. وبالإضافة إلى ذلك، بدأت صور من الإله نمر اليغور لدى الأولميك تظهر في بلاد المايا (١٣).

فالمايا هم أهم شعوب أمريكا القديمة، وقد سكنوا في المقاطعات المكسيكية الحالية: peten، Campech، Yucatan، Chiapas، Tabasco، وفي أجزاء من هندوراس وغواتيمالا.

كانت هناك نحو عشرين قبيلة هندية حمراء تتكلم لهجات المايا ولكن كان التفاهم فيما بينهم يتم بصعوبة، أما بالنسبة لطبقة الكتاب قليلة العدد فكانت هناك لغة مكتوبة تستخدم نظام هيروغليفي واحد للكتابة في كل مدنهم.

كانت تحكم المايا أربع مجموعات من رؤساء القبائل، ولكن عند الخطر كان ينتخب رئيس واحد قائداً أعلى للجيش (١٤).

٢- التاريخ السياسي:

وقد مرّ بعدة مراحل:

- المرحلة الكلاسيكية: امتدت حضارة المايا من منتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلادي، وخلال هذه المرحلة أسس المايا أكبر مدنهم وحققوا إنجازاتهم المتميزة في مجالات الأدب والعلوم. وبالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النصب التذكارية تخليداً للأحداث المهمة في حياة قادتهم.

وفي القرون الثلاثة الأولى في المرحلة الكلاسيكية كانت المدينة المكسيكية، تيوتيواكان مركز إمبراطورية كبيرة. وكان لحضارة تيوتيواكان تأثير قوي في فن ومعمار المايا، وأثر مؤقتاً سقوط ثيوثوا الذي حدث في القرن السابع الميلادي على المايا، ومثال ذلك أن المايا أوقفوا حركة البناء في مدنهم وأوقفوا تشييد النصب التذكارية، وبعد مدة قصيرة دبت الروح مرة أخرى في حضارة المايا واستمرت في التطور لمدة ثلاثمئة سنة إضافية.

ومع بداية القرن التاسع الميلادي، شيد المايا النصب التذكارية في كل مدينة، وتخلوا عن مراكزهم الرئيسية في الأراضي المنخفضة الجنوبية الواحد بعد الآخر، وفي النهاية غادروا المنطقة بصفة نهائية، وما زال العلماء يحاولون اكتشاف الأسباب التي أدت إلى انهيار مجتمع المايا، ويعتقد بعض الخبراء أن الانهيار يمكن أن يكون ناتجاً من عوامل مثل المرض وتلف المزروعات وانتقال مجموعات

بشرية أخرى إلى منطقة المايا، ومع ذلك، يرى عدد من المؤرخين أن مزارعي المايا ثاروا ضد حكومة الرؤساء والكهنة لسبب ما، وساهموا بذلك في انهيار مجتمع المايا.

– المرحلة المكسيكية: بقيت مراكز المايا في شمال يوكاتان مائة سنة بعد أن تلاشت مراكزهم الموجودة في الأراضي المنخفضة الجنوبية، وحتى بعد أن هجر المايا المراكز الشمالية، استمرت بقيّتهم في العيش في تلك المنطقة. وفي منتصف القرن العاشر الميلادي، غزا التُولتيك ـ وهم شعب جاء من الأراضي المرتفعة لوسط المكسيك ـ يوكاتان، وأسسوا إمبراطورية في المكسيك عاصمتها تُولا، في شمال ما يعرف اليوم بمكسيكو سيتي، واستولوا على المدينة القديمة للمايا، تشيشن إتزا، وحكموا جميع السكان في شمالي مايا، وأثر التولتيك في فن وهندسة المايا، وأدخلوا عبادة الإله الثعبان المريش سموها كوكولكان. وانهارت تولا في منتصف القرن الثاني عشر الميلادي، وانتهى حكم التولتيك ليوكاتان في القرن الثالث عشر الميلادي.

وعقب نهاية حكم التولتيك شيدت مجموعة من زعماء المايا عاصمة في مايابان وأعاد المايا بناء ثقافتهم من جديد حيث شيدوا مسلات حملت نقوشا. ومع ذلك، ظهرت تحولات في مجتمعهم، فغلبت التجارة على المعتقدات الدينية التي كانت مهيمنة على ثقافة المايا، وأصبحت مدن المايا مراكز تجارية مزدهرة، وبدأ الناس يديرون التجارة بحرية ونشاط.

ثار بعض زعماء مدن المايا على حكام مايابان وهزموهم نحو سنة ١٤٤٠م، وبعد هذا أصبحت يوكاتان مقسمة إلى ولايتين. في بداية القرن السادس عشر الميلادي، استولى الغزاة الإسبان على بلاد المايا، ونحو منتصف القرن السادس عشر الميلادي، قضوا تقريباً على ما تبقى من المايا (١٥).

وما بين القرنين الثاني والرابع الميلاديين شكلت مدن المايا عصبة لدرء الأخطار



الخارجية، وفي القرن السابع حدث انهيار لمراكز حضارة المايا في وسط شبه جزيرة يوكاتان وذلك بسبب المجاعات التي نشأت عن ضعف مردود الزراعة الناجم عن فقر التربة، أو بسبب تمردات وحروب أهلية، فغادر السكان المدينة القديمة إلى الأدغال، ولكن ازدهرت مدن جديدة في شمالي شبه جزيرة يو كاتان.

في الوقت نفسه هرب الكثير من السكان من المدينة الكبيرة تيو تيهواكان، ربما أمام قبائل التولتيك التي كان يقودها رؤساء من عائلات نبيلة، وأسس التولتيك مملكة لهم وكان على السكان أن يدفعوا جزية لهم، وربما كانت غواتيمالا موطن التولتيك.

أسس عام ٦٥٠ م الملك الكاهن التولتيكي العاصمة تولا Tula. ومن خلال كتابات مكتشفة أمكن معرفة تسعة ملوك تولتيكيين توالوا على الحكم ووسعوا مملكتهم في مكسيكو الحالية.

قامت في منتصف القرن العاشر (٩٥٠م) حرب أهلية دمرت بنتيجتها مدينة تولا.

توقفت الحضارة عن التطور في السنوات التالية في أمريكا الوسطى بسبب المجاعة والطاعون، وبدأ تدهور حضارة المايا في شمال يوكاتان في الربع الأول من القرن الثالث عشر، بقيت لغة المايا محفوظة ومعها هيروغليفية المايا، وهي كتابة نصف صورية يحاول العلماء تفسيرها(١٦).

٣- المعتقدات الدينية:

عَبَد شعب المايا عدة آلهة وإلهات كغيرهم من شعوب ذلك العصر، وهناك مخطوط للمايا يذكر أكثر من ١٦٠ من هذه الآلهة، ومثال ذلك أن المايا عبدوا إلهاً للذرة اسمه أهمون، وإلهاً للمطر عُرف باسم شاك، وإلهاً للشمس اسمه كنيش أهو، وإلهاً للقمر اسمها إكسشيل، وكان كل إله أو إلهة يُرتجى على جزء من حياة المايا، فكانت إكسشيل مثلاً إلاهة الطب والغزل.

وأثّر الدين في الحياة اليومية للمايا تأثيراً كبيراً، وكان لكل يوم في سنة المايا أهمية دينية خاصة، وكانت الاحتفالات الدينية تقام على شرف آلهتهم في أيام خاصة خلال السنة، وزعم المايا أن آلهتهم ذات قدرة على المساعدة والإيذاء. ومن أجل الحصول على مساعدة الآلهة، كان المايا يصومون ويصلون، ويقدمون القرابين وفق معتقداتهم، ويقيمون احتفالات دينية عديدة. وكانت الأيائل، والكلاب، والديكة الرومية تُذبح قرابين للآلهة تقرباً وتضرعاً، وكان المايا غالباً ما يقدمون دماءهم والتي كانوا ينشرونها على أجزاء من الورق المصنوع من لحاء (قلف) الأشجار، وقدم المايا بعض القرابين البشرية، مثل إلقاء ضحايا في آبار عميقة أو قتلهم في مآتم القادة الكبار، وفي المدن، بنى المايا أهرامات عالية من الأحجار الكبيرة، وأقاموا على رأسها معابد. وكان الكهنة يتسلقون درجات الأهرامات ويقيمون الشعائر الدينية في المعابد، وكانت الاحتفالات الدينية الكبرى التي تتعلق بالسنة الجديدة عند المايا من الطقوس المقدسة وتُقام لكل شهر احتفالات.

ويؤدّي المايا شعائر خاصة عند دفن الموتى؛ فالجثث تُصبغ بالأحمر وبعد ذلك تُغطى بحصير من التبن ويوضع معها بعض

الممتلكات الشخصية، ثم تُدفن تحت المنازل، بينما يدفن حكام المايا والشخصيات المهمة الأخرى، مع حليّهم النفيسة في الأهرامات. وكان الخدم يُقتلون ويدفنون معهم، إلى جانب المجوهرات وأدوات المنزل، لاستعمالها في العالم الآخر (١٧). وتألفت مدن المايا من بيوت خشبية مغطاة بالقش وتقوم حولها المعابد الهرمية المخصصة لعبادة الآلهة المختلفة كالشمس والقمر والنجوم وآلهة المطر والمريح والأرض، كانت هذه الآلهة بالنسبة للمايا تتحكم بكل فصول السنة وبنمو محاصيل الحقول، وكان كهنة المايا منجمين كباراً استطاعوا التنبؤ بكسوف الشمس وخسوف القمر (١٨).

٤- النشاط الاقتصادي:

شارك المايا في شبكة تجارية ربطت بين عدد من المجموعات في أمريكا الوسطى وصدَّر شعب المايا في الأراضي المنخفضة عدداً من المواد، من بينها مصنوعات يدوية ومنتجات خشبية وبحرية وفراء النمور، واستوردوا أحجار اليشم والزجاج البركاني وريش الطائر المسمى الكتزل من مرتفعات جواتيمالا.

أرسل المايا الساكنون في شبه جزيرة يوكاتان الملح والمنتجات القطنية المزخرفة إلى الهندوراس، وفي المقابل، حصلوا على ثمار الكاكاو التي استعملوها لإنتاج الشوكولاتة. ونقل المايا المُنتجات عبر مسافات بعيدة حتى سهل وادي واهاكا في المكسيك ومدينة تيوتواكان، قرب ما يعرف اليوم بمدينة مكسيكو سيتي. ونقلوا أغلب المواد والمنتجات على أكتافهم أو على قوارب صغيرة عبر الأنهار. لم يعرف المايا استعمال العجلة، كما أنهم لم يستخدموا دواب حمل الأثقال كالجياد و الثيران (١٩).

زرع فلاحو المايا الذرة الصفراء والقرع والكاكاو وربوا النحل، غير أن أدواتهم كانت بدائية، وعرفوا فقط القليل عن المعادن. بعد عام ٣٠٠ ق.م أقام المايا أهرامات مدرجة حتى علو ١٨م. وهناك مسلة ارتفاعها ١٠م نقش عليها أقدم تقويم للمايا وأحد النصوص (٢٠).

٥- حضارة المايا:

أنتج شعب المايا نماذج مرموقة من فن العمارة والتصوير التشكيلي والخزف والنحت، وحققوا تقدماً كبيراً في علم الفلك والرياضيات وطوروا تقويماً سنوياً دقيقاً. وكانوا أحد الشعوب الأولى في النصف الغربي للكرة الأرضية، حيث كان لديهم شكل متطور للكتابة. وعاش شعب المايا في مساحة تقارب ٣١١ ألف كم٢، وقُسمت في الوقت الحاضر أرض المايا بين عدة بلدان من أمريكا الوسطى. فهي تتكون من الولايات المكسيكية كامبيشي، ويوكاتان، وكوينتانا رو وجزء من ولايتيّ تاباسكو، وتشياباس، كما تضم كذلك بليز ومعظم جواتيمالا، وأجزاء من إسلفادور والهندوراس، ويوجد مركز حضارة المايا في الغابة المدارية للأراضي المنخفضة في جواتيمالا الشمالية، وتطور في هذه المنطقة عدد من مدن المايا المهمة، مثل: بييدراس نيكراس، وتيكال و أوكساكتون.

وبحلول القرن العاشر الميلادي تغيرت حضارة المايا في عدة نواح؛ فالناس في الأراضي المنخفضة الجنوبية، تخلوا عن مدنهم، وفي النهاية عن المنطقة برمتها. ولا زال العلماء

يحاولون معرفة أسباب انهيار مجتمع المايا، وذلك بفحص وثائق المايا المتبقية والبحث عن مؤشرات ضمن بقايا مدن المايا، كما أن هناك تغيرات كبيرة حدثت في الأراضي المنخفضة الشمالية، ورغم ذلك استمر المايا في العيش هناك. واليوم، يعيش المنحدرون من المايا في المكسيك وأمريكا الوسطى، وهؤلاء الناس يتكلمون لغات المايا ويحتفظون ببعض التقاليد الدينية لأجدادهم (٢١).

وعلى الرغم من أن المايا، شأنهم شأن بقية الهنود الحمر، لم يعرفوا الدولاب والمحراث والقوس، ولم تكن لديهم حيوانات جر، لكنهم حققوا إنجازات حضارية هامة فقد بنوا الأهرامات المدرجة الرائعة والمعابد والقصور، واستخدموا في الحساب نظاماً عشرينياً وحسبوا بالملايين، وكان عندهم تقويم دقيق يتألف من ١٨ شهراً وكل شهر من عشرين يوماً وشهر يتألف من خمسة أيام، وكان كل يوم مخصصا لتقديس إله، وبذلك كان تقويمهم من هذه الناحية شبيهاً بالتقويم الميلادي الحالي. واعتقد المايا أن قوى الكون هي التي تحدد مصيرهم لذلك خضعوا كالعبيد للتقويم والتنجيم (٢٢).

ما بين عام ١٠٠ ق. م – ١٥٠م أصبحت بالتدريج الصفات المميزة لحضارة المايا مرئية وهي: قصور من حجارة كلسية – أهرامات كمعابد – كتابة هيروغليفية والتقويم. وفي الوقت نفسه كسب الإنسان في مقاطعة Peten عن طريق حرق الحجر الكلسي مونة بيضاء تمكن بها من بناء أبنية صعبة مثل هرم أواكساكتون Uaxactun بالقرب من تيكال Tikal (٢٣).

أما بالنسبة للعلم والعلوم، فقد طوّر المايا شكلاً متقدماً من الكتابة، تكونت من عدة رموز، وهذه الرموز تركيبة من الأصوات والأفكار شكلّت نوعاً من الكتابة الهيروغليفية.

سجّل شعب المايا معلومات على النصب التذكارية الحجرية التي تسمى إستيلا، وكذلك على بعض البنايات والأدوات المنزلية. واستعملوا الإستيلا لتدوين التواريخ المهمة والأحداث الكبرى في حياة حكامهم. وأنتج المايا كتباً من ورق مصنوع من قلف شجر التين، بقيت منها عدة كتب من القرن الثاني عشر إلى بداية القرن السادس عشر الميلاديين وهي تحتوي على جداول فلكية ومعلومات عن الاحتفالات الدينية ويوميات تبين الأيام المحفوظة لمواسم أعمالهم مثل الزراعة والقنص. وهناك أشكال أخرى من التقدم الثقافي لدى المايا، مثل تطور الرياضيات وعلم الفلك، واستعمل المايا نظاماً رياضياً مبنياً على الرقم ٢٠، بدلاً من الرقم ١٠ كما هو الشأن بالنسبة للنظام العشري الذي يُستعمل في الوقت الراهن. ومثّلت النُقط والشرطات الأرقام، وكان هناك الرمز الخاص لتمثيل الصفر. ويعد الرياضيون الصفر أحد الابتكارات الكبرى في العالم. وطور بعض الكهنة معرفتهم بعلم الفلك بوساطة مراقبة مدارات الشمس والقمر والنجوم، ووضعوا جداول تتنبأ بالكسوف ومدار كوكب الزهرة.

استعمل الكهنة كذلك الرياضيات وعلم الفلك لتطوير نوعين من التقويم؛ الأول تقويم مقدس على حدٍّ قولهم يتكون من ٢٦٠ يوماً، وحمل كل يوم اسماً مع

واحد من أسماء عشرين يوماً ورقماً من ١ إلى ١٣، وكان لكل اسم من العشرين يوماً إله أو إلهة مرتبطة به، وكان الكهنة يعتقدون أن باستطاعتهم التنبؤ بالحظ السعيد أو السيء بوساطة دراسة تركيب الآلهة أو الإلاهات والأرقام، وكان للمايا تقويم من ٣٦٥ يوماً مبني على مدار الأرض حول الشمس. وقسمت هذه الأيام على ١٨ شهراً باحتساب ٢٠ يوماً لكل شهر زائداً ٥ أيام عند نهاية السنة. وعدّ المايا هذه الأيام الخمسة الأخيرة في السنة سيئة الحظ للغاية، وخلال هذه المدة كانوا يصومون ويقدمون عدة قرابين ويتجنبون أي عمل غير ضروري. واستعمل المايا الأعشاب والسحر لمعالجة المرضى، وبالرغم من ذلك، لا يعرف العلماء إلا القليل عن معرفة المايا بالطب.

أما الفنون والحرف؛ فقد أنتج المايا فناً معمارياً مميزاً وفريداً وكذلك الأمر بالنسبة للتصوير التشكيلي والخزف والنحت، وقد بنى معماريون ذوو خبرة عالية أهرامات بالأحجار الكبيرة وفوقها معابد صغيرة. وشيدوا نوعاً من الأقواس وذلك بوساطة بناء حائطين متواجهين عند القمة وربط الهوة بينهما بوساطة صف من الأحجار المسطحة. وبنى المايا كذلك بنايات كبيرة ومنخفضة، ومن المعتقد أنها كانت لسكن الرؤساء والكهنة في الاحتفالات المهمة، وتوافرت عدة بنايات ذات زخرفة مسطحة تسمى مُشوط السقف التي امتدت من النقطة العليا للسطح. وأعطت مُشوط السقف، مثل أبراج الكنائس، الانطباع بأن البنايات ذات عُلو شاهق.

زين الفنانون الجدران برسوم ملونة بألوان زاهية تصور شخصيات تشارك في معارك واحتفالات. ورسموا الشخصيات بالتصوير الكفافي (أي رسم الخطوط العامة لأجزاء الجسم) ثم لونوها بألوان مختلفة، ونادراً ما ظلّلوا هذه الألوان أو صبغوها بصُور متدرجة. وهناك نوع مماثل من التصوير التشكيلي يظهر في خزف المايا. وصنع المايا منحوتات صغيرة من الطين ونحتوا منحوتات كبيرة من الحجر، وتشكلت أغلب المنحوتات الكبيرة التي وصل بعضها إلى عُلو ٩م من شخصيات الآلهة والأفراد المهمين (٢٤).

وأخيراً؛ يوجد في الوقت الراهن عدة شعوب في المكسيك وأمريكا الوسطى ما تزال تتكلم إحدى اللغات واللهجات العشرين التي تطورت من لغة المايا، و تعيش بعض هذه الشعوب في الأراضي العليا للمكسيك وجواتيمالا، والأخرى تعيش في الجهات الشمالية لشبه جزيرة يوكاتان في المكسيك. ولعل شعب اليوكاتيكو في يوكاتان اليوم أكثر هذه الشعوب من جهة الانحدار المباشر من المايا، هذا وكثير من المنحدرين من شعب المايا يزرعون الأرض على غرار ما فعله أجدادهم ولا يزالون يتمسكون ببعض شعائرهم وعاداتهم التقليدية.

تشكل اليوم أطلال مراكز احتفالات المايا مواقع جذب سياحي، وتشمل هذه الأطلال في المكسيك أطلال بونامباك وبالنات في شياباس وتشيشن إتزا في يوكاتان الشمالية، ويزور السياح كذلك أطلال تيكال في جواتيمالا وكوبان في الهندوراس (٢٥).

وأخيراً لا بد من الإشارة إلى حضارة أمريكا الثالثة: الأنكا، التي قامت غربي أمريكا

الجنوبية في جبال الأنديز سنة ١٢٠٠م، وقضى وكانت حضارتها زراعية (٢٦)، ولعلنا نكتب عليها المستعمرون الأوربيون سنة ١٥٣٣م، عنها في بحث مستقل لضيق المساحة هنا .

الهوامش:

(١) تاريخ الحضارة: عمار النهار، إبراهيم زعرور، جامعة دمشق، ٢٠١٠، ٢٠١١م، ص١٣٥. الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، طرابلس، ليبيا، ط٢، ١٩٩٣، ص٦٤.

(٢) تاريخ الحضارة: النهار، زعرور، ١٣٦، ١٣٧.

(٣) الموسوعة العربية العالمية: الرياض، السعودية، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، أمريكا.

(٤) المدخل إلى تاريخ الحضارة: فيصل عبد الله وعيد مرعي، جامعة دمشق، ص٢١٠- ٢١٢ .

(٥) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(٦) تاريخ الحضارة: النهار، زعرور، ١٤١، ١٤٢.

(٧) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢١٠- ٢١٢ .

(٨) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(٩) تاريخ الحضارة: النهار، زعرور، ١٤٤، ١٤٥.

(١٠) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(١١) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص٦٤.

(١٢) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص٦٤.

(١٣) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(١٤) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(١٥) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص٦٤.

(١٦) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(١٧) تاريخ الحضارة: النهار، زعرور، ١٤٩، ١٥٠.

(١٨) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(١٩) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(٢٠) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(٢١) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(٢٢) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(٢٣) المدخل إلى تاريخ الحضارة: عبدا لله و مرعي، ص٢٠٨- ٢٠٩ .

(٢٤) تاريخ الحضارة: النهار، زعرور، ١٥١ - ١٥٣.

(٢٥) الموسوعة العربية العالمية، أمريكا.

(٢٦) الحضارة العربية الإسلامية: شوقي أبو خليل، ص٦٤.